العربية معجزة القرآن
وانتشارها من عوامل انتشار الإسلام

للدكتور عبد السلام الترمانيني
كلية الحقوق ـ جامعة حلب ـ سوريا

الاسلام مرتبط باللغة العربية ارتباطا وثيقا ، وهو عامل أساسي من عوامل انتشارها ، ذلك ان القرءان الكريم ، وهو رسالة الاسلام الى الانسانية ، قد نزل بلغة العرب الذين اختارهم الله لتبليغ رسالته ، ولا يتأتى فهم مقاصده فهما سليما الا عن طريق اللغة العربية .

ان اللغة العربية ليست لغة تعبير فحسب وانما هي الى جانب ذلك لغة ايقاع وتصوير ، وقد كانت معجزة القرءان فى الصور البيانية الرائعة التي صقلت معانيه وجلت مقاصده ، فاستأثرت باحساس العربي وملكت عليه لبه وآمن منقادا لسحرها الحلال ، وهي التي فجرت طاقاته ودفعته الى نشر رسالة الاسلام .

وقد اثار الفتح الاسلامي دهشة الشعوب التي كانت تعيش فى ظل نظم سياسية استبدادية ، وتبدلت فى انظارها صورة العربي التي كانت تعرفه قبل الاسلام، ورات فى سلوكه ودعوته ما حبب اليها الاسلام ، فاسلم منها من اسلم ، وعاش فى ظله من آثر البقاء على دينه . وكان لابد لتلك الشعوب ان تتعلم اللغة العربية لتفهم سر الدعوة الجديدة التي بدلت من مفاهيم الحياة وتستكمل ايمانها بمعرفة مقاصدها . ومن هنا كان الاسلام عاملا اساسيا من عوامل انتشار اللغة العربية.

كذلك كان انتشار اللغة العربية من اسباب انتشار الاسلام ، ذلك لان معرفة هذه اللغة دلت على المعرفة بالقرءان ، باعتباره اصفى مورد من مواردها واعذبه واقربه الى النفس الانسانية ، وقد وجدت فيه كل ضمانات الحياة الحرة الكريمة ، فآمنت بدعوته وانقادت لشريعته .

ونحن لا نحصر الشواهد على ما نقول من واقع بيئتنا التي نعيش فيها وانما نستمد الشواهد من جميع البلاد والاقاليم التي انتشر فيها الاسلام . فما فتحه العرب المسلمون كان انتشار الاسلام فيه من أسباب انتشار اللغة العربية ، وما انتشرت فيه اللغة العربية كان من أسباب انتشار الاسلام .

ولا ريب أن وهن اللغة العربية وضعفها قد ادى الى وهن الوعي الاسلامي وضعف الوازع الديني . فاللغة العربية الخالصة ، هي التي تنقل الى القلب صور المعاني الرائعة التي تتجلى فى تراث الرسالة الاسلامية ، فتتحول الى وازع يزع الانسان عن الشر ويحضه على الخير ، فاذا وهنت لم تعد قادرة على نقل تلك الصور الى القلب وتبليغه معانيها ومقاصدها ، فيخلو من الوازع .

ان احياء اللغة العربية ضرورة لازمة لاستيعاب معاني القرءان وتحقيق غاياته ، وهو ضرورة لاحياء الوازع الذي يزع القلوب عن الضلال . وهذه الضرورة لا تقتضيها مصلحة المسلمين فحسب ، وانما تقتضيها مصلحة العالم الذي فسد يقينه وتحكمت بمصيره القوى الطاغية التي لا يردها وازع ولا يصدها عن الشر رادع .

ومن اجل ذلك يجب ان تحتل اللغة العربية مكان الصدارة فى جميع البلاد العربية والاسلامية .

ان اللغة العربية في الاقطار الاسلامية لا تواجه اللغات القومية فحسب بل تواجه ازدياد نفوذ اللغات الاجنبية الحية في تلك الاقطار ايضا ، كالانجليزية في آسيا والفرنسية في افريقيا . وغالبية المسلمين من غير العرب لا يفقهون شيئا من آيات القرآن اذا تلوها في المصحف ، بله الذين يقرؤونها خلال طقوس الحج وسائر العبادات بالحروف اللاتينية .

ان العلاقة بين اللغة العربية والعقيدة الاسلامية طرا عليهما اليوم تبدل واضح، فلم تعد علاقة تلازم تقتضي بالضرورة ان يكون ازدهار العربية نتيجة حتمية لتعاظم الوازع الديني ، او ان خمول هذه اللغة العربية يستلزم حتما اضمحلال الوازع الديني . وبتعبير آخر ان **العلاقة بين اللغة العربية والاسلام في طابعها الراهن لم تعد علاقة سببية تبلغ حد التفاعل والتأثير المتبادل** . فعلى الرغم من الترابط بين العربية والاسلام تبعا لجذور تاريخية باقية ومتجددة فانهما **يسيران في طريقين متوازيين** قد يلتقيان فيتعانقان او يفترقان فيتباعدان ولكنهما بأية حال **لا يتعارضان** .

ان الظاهرة المميزة للاجيال العربية الحديثة تتجلى في محبتهم المطردة للغة الضاد ، وغيرتهم عليها ، وتفانيهم في خدمتها ، شانهم في ذلك شأن السلف الصالح، مع اختلاف في طبيعة الحافز بين الامس واليوم . فعلى حين كان الدين وخدمته العامل الفعال في الاقبال على العربية غدت النزعة الوطنية والعاطفة القومية في هذا العصر الدافع الرئيسي في سبيل رفع شأن العربية . وهذا ما يفسر ضآلة مساهمة المسلمين من غير العرب في مضمار الدراسات العربية بالنسبة الى ما كان عليه حالهم في سالف العصور وفي مقابل ذلك نلمس ـ منذ فجر النهضة حتى اليوم ـ لدى العرب غير المسلمين وبخاصة في لبنان وسوريا والمهجر احتفالا كبيرا بالعربية وتراثها .

والحقيقة الساطعة التي تثلج القلب ان **العربية في ازدهار مطرد** داخل وطنها وبين اهلها مما يبشر بانطلاقها الى آفاق ابعد لا تحد . **فالهوة بين العامية والفصحى آخذة في الضيق،** وهذا واقع نلمسه لدى مقارنة عامية هذا الجيل في القطر السوري مثلا بعامية الجيل الذي قبله ، بل ان هذا الفارق ليبدو واضحا بين لغة الآباء ولغة الابناء تحت سقف البيت الواحد ، وذلك بفضل انتشار التعليم على نطاق واسع ، وذيوع اجهزة الاعلام كالصحافة والاذاعة والتلفزة وتغلغلها المطرد في اوساط الشعب . يضاف الى ذلك ان تجربة التعريب الرائدة في سوريا خلال نصف قرن مضى من الزمن قد اثبتت نجوعها واتاحت للعربية بفضل فيض المصطلحات العلمية الموضوعة ، وتدريس الطب باللسان العربي ... مزيدا من **الانفتاح على الفكر العالمي** ومنجزات الامم الاخرى . ونحن نلاحظ بثقة واعتزاز **ان لغة الضاد ماضية قدما في كل يوم لتغدو اللغة الرسمية** في كثير من المؤسسات العالمية والهيئات الدولية ، ولتتربع بجدارة الى جانب اللغات القليلة السائدة في ارجاء المعمورة . وان اقرار العربية مؤخرا لغة رسمية في منطقة اليونسكوالدولية يعد نصرا مبينا في سلسة انتصارات هذه اللغة العريقة الخالدة .

غير ان **الطريق ما زال شاقا وطويلا امام العربية** حتى تتبوأ المنزلة الرفيعة التي نطمح اليها بين سائر اللغات الحية المتطورة . وما ذلك الا لان **ضعف اللغة رهن بتخلف اهلها** ، وازدهارها منوط بتقدمهم .

ان المرحلة الحضارية الحاضرة التي تعيشها الامة العربية تقتضي منا ان نفتح عينا على لغتنا القومية وعينا اخرى على اللغات الاجنبية السائدة . اما **مبالغتنا في فضل العربية** ومزاياها الفائقة واشاحة وجوهنا عن مزايا بعض اللغات الاخرى **فنزعة سلبية ضارة** قوامها استعلاء غير واقعي، وقد آن لها ان تنقضي بانقضاء مرحلة تحقيق الذات التي تجاوزها العرب ، لان **مثل هذا الشعور قد يؤدي بفكرنا الى العزلة عن المعطيات الحضارية** لدى سائر الامم . **ان لغتنا على اصالتها وطاقتها الذاتية الخلاقة ما تزال قصيرة الباع متخلفة عن بعض اللغات العالمية في مضمار العلوم والتكنولوجيا** . كما ان **انصرافنا في مقابل ذلك عن اللغة العربية** في هذا المضمار **امتهان لانفسنا** وحكم جائر على لغتنا القومية بالعجز والعقم.

ان غالبية الامم تطمح بداب الى ان تجعل لغتها القومية هي السائدة في وطنها . وهذه الغاية بالنسبة الينا ضرورة حيوية وحتمية ، **لانها تنبع من شعورنا** بشخصيتنا وايماننا بحقيقتنا وادراكنا لاصالتنا وثقتنا بلغتنا . غير ان هذا كله ينبغي الا يحول بيننا وبين **الاتكاء على اللغات الاجنبية** ما دام هذا الاتكاء ضروريا لنا في وصلنا بتطور الانسانية الخلاق . هذه مرحلة قد تطول ، ولكنها لابد ان تبقى في نظرنا مرحلة ، وان نضع نصب اعيننا ضرورة تجاوزها في قابل ايامنا الجادة ، حين تستطيع العربية الوقوف على قدميها ، وتغدو الوعاء الرحيب لجميع المنازع الفكرية والمعطيات الحضارية .